النصرانية في الاسلام (١)

يذهب الكثيرون ممن لم يقفوا على الحقائق التاريخية الى ان النصرانية لم تتمتع احيانا في الدولة الاسلامية ولا انتظمت امورها ولا نالت حظها من المراكز والمناصب الا بعد مداخلة دول الغرب . وبجيل للسواد الاعظم من العامة حتى فريق كبير من الخاصة ان المسلمين والمسيحيين كانوا على اشتقاق دائم وفتن متصلة فكان اهل الاسلام يسومون النصرانية الخسف ويمعنون فيها النكاية وهذه تتربص بهم الدوائر حتى اذا سنحت لها فرصة قلبت لهم ظهر المجن . الا وان الحقيقة غير ما يخيل لهم

ولقد اطلعت في الجزء الرابع من مقتطف هذه السنة (ترجمة غالي باشا) على لمحة عمن ولي الوزارة من الاقباط فاحببت ان اشفعها بوجز من القول في حالة النصرانية السياسية في دولة الاسلام مستشهداً على ذلك بما حضرني من الادلة الناصعة والبراهين القاطعة على ان النصرانية كانت والاسلام في غالب الاحيان وامرهم جميع وكلتهم واحدة مستنداً في اكثر ما اورده على الكامل لابن الاثير وهو معروف بسعة الاطلاع مشهود له بصدق الرواية

لا ننكر ان بعض الخلفاء والملوك من المسلمين اضطهدوا رعاياهم غير المسلمين ولكن من يثبت لنا ان العامل في جميع تلك الاضطهادات هو التعصب الديني فقد يتفق وقوع الاضطهاد لغرض سياسي او لتوحش فطري لا علاقة لها بالدين

هذا المتوكل العباسي الذي ينقم عليه المسيحيون قتله ايامه وعبثه بحقوقهم وحريتهم فكل بانباء عمه العلويين وهم شجرة الاسلام بل ثمرته فنبش قبورهم وفتحها بالسكك بعد ان هدم قبابها وحرم الاسلام زيارتها وليس ما فعله بالنصرانية في جنب ما فعله بابناء عمه وهم لم يخالفوه على سلطانه ولا قام فيهم قائم ينازعه خلافته بشيء مذكور وانما عمله بالفريقين من قبيل التوحش الغريزي ليس الا

وهذا ابرهيم الامام اول قائم في بني العباس كتب الى ابي مسلم الخرساني « اقتل من شككت فيه وان استطعت ان لا تدع بخرسان من يتكلم بالعربية فافعل » ثم بعث اليه بكتاب ابين من الاول قال له فيه « اقتل كل متكلم بالعربية في خرسان » ولما كان سواد العرب هناك بل كلهم اسلاماً والامام مسلماً حمل امره على سبيل السياسة لان هوى العرب كان في بني

(١) عنينا النصرانية وان كنا ذكرنا غيرها من اهل الذمة نظراً لاهميتها وكونها اكثر طائفة في بلادنا بعد الاسلام

امية ولو اختلف دين الحاكم والمحكوم لقامت القيامة وعميت الابصار عن امور السياسة وعدّ هذا الامر صحيفة سوداء في تاريخنا

وخلاصة القول اننا لا نقصد بما نكتبه تبرئة انفسنا من كل تعصب فهذا ما لم يسلم منهُ شعب من الشعوب حتى في عصرنا الحاضر ولكننا نريد ان نبين حقيقة تاريخية ليعلم من يومنا نحن الشرقيين بشدة التعصب اننا لسنا من التعصب بحيث يتصورونا هذا اذا لم نكن اقل من غيرنا تعصباً . وليعلم المنصفون ان ليس كل ما حدث من النكبات من قبيل التعصب الديني كما بيناً آنفاً . واذا كان المسلمون قد اعطوا المسيحيين في الدولة الاسلامية الدستورية مراكز عالية ومناصب سامية فقد اعطوهم مثلها واعظم بل ذي قبل واذا والى المسيحيون المسلمين ونصروهم ايام المساواة والعدل والحرية فقد والوهم ونصروهم في حروبهم الدينية وفتوحاتهم الاسلامية

وانا ذاكر بعض ما عثرت عليهِ خدمة للتاريخ وتوحيداً للنفوس وتأليفاً للقلوب . ففي وقعة قس الناطف (ويقال لها الجسر ويقال لها المروحة) وهي بين العرب والفرس قاتل ابو زيد الطائي وكان نصرانياً مع جيوش الاسلام حمية للعربية قتالاً شديداً (١)

وفي وقعة البويب وهي بين العرب والفرس ايضاً جاء المثنى بنَ حارثة قائدَ الاسلام انسُ بنُ هلال النمري وكان نصرانياً في جمع عظيم من بني النمر كلهم نصارى وقالوا نقاتل مع قومنا . ولما حمل المثنى على مهران وازع الفرس حمل انس معهُ وكان الذي قتل مهران في هذه الوقعة غلام نصراني من تغلب كان يقاتل وفراً كبيراً من قوم التغلبيين كلهم نصارى (٢)

ولما خرج الوليد بن عقبة على عجم الجزيرة شهض معهُ المسلم والنصراني وحاربوا معهُ (٣)

ولما همَّ صاحب غزة وكان نصرانياً بقتل عمرو بن العاص كان السبب في نجاته رجل من نصارى غسان (٤)

وكان النصارى في ايام صاحب الرسالة يتمتعون وسائر اصحاب الذمة بما لا يحلم بهِ المسلمون التابعون لدول النصرانية في هذا العصر عصر التساهل والتسامح والمساواة . ومن قرأ تلك الرسالة التي ادرجتها لسان الحال (في احد اعداد سنتها الماضية) نقلاً عن مجلة روضة المعارف البيروتية علم ان نبي الاسلام اوصى بالنصارى وصية الرجل بذويه . وجاء الخلفاء الراشدون بعدهُ فاتقفوا اثرهُ واتبعوا سنتهُ وعاملوا اهل الذمة بما عاملهم بهِ محمد من قبل

(١) ابن الاثير جزء ٢ ص ٢١٤ (٢) ابن الاثير جزء ٢ ص ٢١٥ (٣) ابن الاثير ج ٣ ص ٣٦٢
(٤) العقد الفريد جزء ١ ص ٣٤

واني لخائف على النصرانية في ايام الراشدين ظلماً وحيداً عن جادة الانصاف وهم رافعو منار العدل وحاملو لوائه فقد استعدت ذمية عمر بن الخطاب على علي بن ابي طالب فقال عمر قم يا ابا الحسن الى خصمك فقام عابساً فالتفت اليه عمر وقد قضى له عليها قائلاً أكرهت يا ابا الحسن ان ادعوك الى الوقوف مع خصمك وانت مكذوب عليه فقال لا ولكن اغضبني ان لا تقول لي قم يا علي فلعل الخصم يداخله شيء من الزهبة او الحفظ او انت كنيتني

ثم جاءت الدولة الاموية المعروفة بنعرتها العربية فانصرفت للعرب كافة وميزتهم على غيرهم من الامم غير مراعية جانب الدين فكان الاخطل التغلبي الشاعر المشهور وهو على النصرانية ينال من اعراض المسلمين فتشفع له عند الامويين عربيته وقد بلغ به الامر ان هجا الانصار . وكان خالد بن عبد الله القسري عاملهم على العراق وخرسان ايام هشام بن عبد الملك يبني الكنائس والاديرة ويكثر من عمال المجوس[1] وفيه يقول الشاعر واظنه الفرزدق وكان قد امر بهدم منار المساجد

الا قطع الرحمن ظهر مطيةٍ التنا تهادى من دمشق فخالد
بنى بيعاً فيها النصارى لامهِ ويهدم من كفر منار المساجد

لان ام خالد كانت نصرانية

واراني في غنى عن الاسهاب فمن تصفح تاريخ بني امية عرف شدة تعصبهم للعرب عامة والنصارى داخلون في جملتهم لانهُ لم يكن بين الاسلام لذلك العهد غير نصارى العرب

ولما ادال الله الدولة العباسية على الدولة الاموية دعتهم سياستهم الى اضطهاد العرب كافة كما هو معروف مسلمهم وذميهم وما استتب امرهم وكادوا يسطون على العرب اخوانهم في الجنسية ويرفقون بهم حتى التاثت احوال دولتهم واضطرب حبلها وضعف شأنها واصبحت النوبة بين يدي المماليك من الديلم والعجم والترك وغيرهم من الاجيال

ومع كل هذا فقد كان للنصرانية شأن يذكر فنقلد منها غير واحد زمام الاحكام وادلت الوزارة بمقاليدها الى كثير منهم فتلقبوا بالقابها وتزيوا بازيائها دون فرق بينهم وبين اهل الاسلام وفي ما نورده برهان ساطع ودليل قاطع على ما قلناهُ

فسنة ٣٦٩ في ايام الطائع شرع عضد الدولة في عمارة بغداد وكانت قد خربت تتوالى الفتن عليها فعمّر المساجد والاسواق وادر الاموال وامر وزيرهُ نصر بن هارون وكان نصرانياً في عمارة البيع والاديرة واطلاق الاموال لنقرائهم[2]

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١٠٠ و١٣١ وابن خلكان ج ١ ص ٢٠٣

وكان الحسين بن عمرو كاتب الخليفة العباسي وناظر الاموال نصرانياً [١] وكأن الخليع الشاعر استبطأ رفده فقال فيه

حسين بن عمرو عدو القرآن يصنع في العرب ما يصنع
يقوم لهيبته المسلمون صفوفاً لفرد اذا يطلع
فان قيل قد اقبل الجاثليق [٢] تحفّى لهُ ومشى يظلع

وفي ايام المقتدي بامر الله العباسي ولي البصرة ابن علان اليهودي وعظم امرهُ فيها الى حد ان زوجتهُ توفيت فمشى لها كل من في البصرة [٣] وتلقب امين الدولة ابو سعد العلاء بن الحسن بن الموصلايا وابن اخيهِ ابو نصر بن الموصلايا يوم كانا على النصرانية في مراكز عالية على عهد الخلفاء العباسيين الثلاثة القائم والمقتدي والمستظهر حتى توصل الاول الى النيابة عن الوزارة وكان الثاني صاحب الخبر الى ان انتهى اليهِ ديوان الانشاء فتلقّدهُ ولُقب بنظام الحضرتين وكان الى ابي الحسن بن الموصلايا كتابة ديوان الزمام ولعلهُ كان على النصرانية كنسيبهِ فاني لم اعرف عن دينهِ شيئاً [٤]

وكان ابو اسعد بن مسعدا اليهودي وكيل السلطان ملكشاه السلجوقي ووكيل نظام الملك الوزير المشهور [٥]

وكان السواد الاعظم من نواب بني مروان ملوك ديار بكر نصارى [٦] وكان على خزائن السلطان صلاح الدين قوم من النصارى

وفي سنة ٤٩١ لما حاصر الفرنج مدينة انطاكية خاف صاحبها من النصارى الذين فيها فاحتال على اخراجهم بحيلة لطيفة فانهُ اخرج في اليوم الاول المسلمين من اهلها ليس معهم غيرهم وامرهم بحفر الخندق ثم اخرج من الغد النصارى لعمل الخندق ليس معهم مسلم فعملوا فيهِ الى العصر فلما ارادوا دخول البلد منعهم وقال لهم انطاكية لكم فهبوها لي حتى انظر ما يكون منا ومن الفرنج فاقاموا في عسكر الفرنج تسعة اشهر وحفظ صاحب انطاكية عيالهم نساءً واولاداً فلم تمدَّ اليهم يد بسوء [٧]

اما دول مصر الاسلامية فقد كثر استعمالها لاهل الذمة وخصوصاً النصارى منهم وهذا برهان على المساواة والعدل لان وفرة عددهم هنالك كانت تدعي لاستعمالهم في الوظائف اكثر من سائر الاقطار

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٨١ (٢) ابن الاثير ج ٧ ص ١٩٦ (٣) ابن الاثير ج ١٠ ص ٤٧
(٤) ابن الاثير ج ١٠ ص ٩٩ (٥) ابن الاثير ج ١٠ ص ٧٦ (٦) ابن الاثير ج ١٠ ص ٥٨
(٧) ابن الاثير ج ١٠ ص ١١٣

فقد تولى يعقوب بن كلس (الذي صار في بعد وزير العزيز نزار) امور الدواوين في ايام كافور فكان يستوفي الاعمال والحسابات . والحجاب والاشراف يقومون له ويكرمونه . ثم تقدم كافور الى سائر الدواوين ان لا يمضي دينار ولا درهم الا بتوقيعه . صار الى هذا كله وهو على دين اليهودية من سنة ٣٣١ الى ٣٣٦ (١) . واستوزر الحافظ لدين الله العلوي سنة ٥٢٩ الامير تاج الدولة بهرام وكان نصرانياً ارمنياً فاكثر العمال من الارمن واستبد وايام في الاحكام

وكان الاسعد بن مماتي متولي ديوان جيش الملك الناصر ثم صار فيما بعد ناظر الدواوين في الديار المصرية وهو على النصرانية

ولقد اضربنا عن ذكر من ذكره المقتطف كعيسى بن بسطورس (وفي الكامل عيسى بن نسطورس) وفهد بن ابرهيم وزير ارجوان وصبي الحاكم والحاكم من بعده وغيرهما

اما النصارى الذين نالوا المناصب الرفيعة وتقربوا في خدمة الخلفاء والسلاطين والامراء كالصابي من الادباء . وحنين بن اسحق وابنه اسحق وابن قرة وحفيده ثابت بن سنان بن قرة وابي الحسن هبة الله بن ابي الغنائم المطبب امين الدولة والمعروف بابن التلميذ من الاطباء . وكذلك الذين تقلدوا الوظائف في الزمن المتأخر فلم نتعرض لهم بالذكر لاشتهار خبرهم فاستناد مثل هذه الوظائف في الزمن الماضي لقوم نصارى مع وجود من يصلح لها من المسلمين اكبر دليل على المساواة والاتفاق اللذين نريدهما لنا في جميع الادوار والعصور

وقد كان التساهل بالغاً حده عند الاسلام فقد اجيز لعملة الروم دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لبناء جامعها وهذا ما ذكره المقتطف في الجزء السادس عند ما تكلم عن جامع دمشق . واليك ما قاله ابن الاثير في هذا الصدد بالحرف الواحد جزء ٤ صفحة ٢٥٦ « وبعث الوليد الى ملك الروم يعلمه انه قد هدم مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ليعمره فبعث اليه ملك الروم مائة الف مثقال ذهب ومائة عامل وبعث اليه من الفسيفساء بار بعين حملاً فبعث الوليد بذلك الى عمر بن عبد العزيز وحضر عمر ومعه الناس فوضعوا اساسه وابتدأ بعمارته »

ورواية ابن بطوطة في رحلته جزء ١ صفحة ٥٨ تطابق ما ذكره الكامل تمام المطابقة فلو لم يكن يجوز دخول اهل الذمة الى تلك الاراضي عاملين لما رضي بذلك عمر بن عبد العزيز وهو من اتباع سنة النبي واوامره ونواهيه بالمكان المعروف

(١) ابن خلكان ج ٣ ص ٣٩١

ولست بما اوردتهُ مدعياً الاحاطة باطراف هذا البحث المهم فهو يتطلب مدارسة كتب التاريخ كلها لان مؤرخينا لم يطلقوا على هذا الامر كبير اهمية ولذلك لا تراهُ مجموعاً بل متفرقاً في كتب التواريخ لا يتحصل من دراسة كتاب او كتابين من هذا القبيل نفسي ان يتفرغ لهذا الموضوع بعض المدققين فان فيهِ توحيداً لما اختلف من الاهواء وتأليفاً لما تنافر من الآراء واظهاراً لما غمض من الحقائق التاريخية ولعل لنا اليهِ عودة ان شاء الله

عيه (لبنان) عارف النكدي

وقع في الجزء السادس صفحة ٥٨٩ السطر الحادي عشر لفظة الذي عوضاً عن التي وهي آخر كلمة في السطر المذكور

اللغة العربية والطب

(تابع ما قبلهُ)

(التروز) ورد في نجعة الرائد «وقد الفيتهُ جثة تارزة اي يابسة لا روح فيها . وقد ترز الميت تروزاً اذا يبس» ويوافق التروز كلمة (Rigor mortis) وهو النيبس الموتي

(الدسام) ورد في نجعة الرائد «وقد دسم الجرح اذا جعل فيهِ الفتل وما يجعل فيهِ دسام بالكسر» وهو (الشاش) الذي تحشى بهِ الجروح من مثل الشاش اليودوفورمي والشاش الدرماتولي والشاش السليماني . وعلى ذلك يمكن ان يقال الدسام اليودوفورمي والدرماتولي والسليماني

(المنقاش) ورد في نجعة الرائد للرحوم اليازجي «ونقش العظم وانتقشهُ اذا استخرج كسرهُ وما تشظى منهُ وقد تناولهُ بمنقاشهِ وهو ما تمسك بهِ الشظية والشوكة ونحوها لتستخرج» وينطبق هذا الوصف على ما يسمى بالانكليزية (Sequestrum forceps) اي جفت النكروز وهو جفت يمسك بهِ شظايا العظم وكسرهُ اثناء العمليات الجراحية

(الأباء) جاء في الدرب الموارد لسعيد الخوري الشرتوني «فلان اصابهُ أباء اذا كان يأبى الطعام» ويوافق ذلك (Anorexia & Anorexy) اي فقد شهوة الطعام وهو عرض من الاعراض التي تصادف في امراض كثيرة